قصة قصيرة

طقوس للحب عبر الأبواب الحزينة

حمدي الكحلوت

شمس تموز تحدّق في الأغوار.. الحافلة تترنح بركابها المئة.. صوت محركها يهدر في إعياء.. ويقول أشياء كثيرة.. ترتطم بأدمغة المسافرين فترتد شظايا مبعثرة من الأفكار، وقطعاً كبيرة من ثرثرة الكبار، وصراخ الأطفال، وأحلاماً مجروحة عن الوطن.. الأهل.. التصريح.. الزيارة.. الغربة.. بكاء الأطفال يطغى أحياناً، فيذكر بيوم الخروج.. في سنة النكبة، أو سنة بداية النكبات.

كنت يومها في مثل سن هؤلاء المتصايحين عطشاً وارهاقاً.. لكن الطريق بين البيارة والمخيم كانت أشق وأطول.. وكانت اكثر رعباً.. ليس من السهل ان تمحو من ذاكرة الطفل صوت طائرة تطارده «بالقيازين» وأنباء الذبح والبقر، واقع يتراءى من حوله.. وطريق تصفر فيه الريح، والفلول المنهزمة، ورؤى مبهمة لمكان اللجوء أو الموت البطيء في المخيمات.

تهتز الحافلة وتتهادى إيذاناً بالوقوف.. السائق بجسده الضخم يصارع مقود السيارة.. ينقل بصره بين الطريق والمرآة، فلا يرى فيها الا كتلاً من الأجساد البشرية، وغابة من الأيدي المنزرعة في سقف الحافلة.. ووجوهاً تستطلع وتتعجل للعبور.. أمامه رتل من السيارات ينتظر على حوافي النهر.. خلف آخر سيارة انتظم بهدوء مشاركاً المحرك زفرته عند التوقف التام.. مع حلقات الدخان المنبعثة من لفافته حلق بعيداً على خط آخر عمل عليه ايام شبابه الأولى.

كانت الحمولة تختلف.. صناديق برتقال «شموطي» إلى ميناء يافا.. وكان كل شيء أجمل.. حتى عندما كانت تتأزم الأمور ويصر الانجليز على تفتيش الشاحنة بدقة.. كان يجد ألف طريقة للخروج سالماً من براثنهم وايصال الشحنات المهربة إلى الثوار تحت صناديق البرتقال اليفاوي فيعود إلى البيت وفيض من السعادة يغمره لأنه عمل شيئاً ضد هؤلاء الذين يتجمعون ويتدربون علناً لارتكاب جريمة ضده بينما يُحظر عليه هو ان يحمل سكيناً يدافع بها عن أهله وبيته.. إيه..لا زال منطق الظلم يسير في مسلسله المعهود.. لكن شيئاً واحداً واساسياً قد تبدل فيه وهو نحن، ومن هنا سيأتي اليوم الذي نمسك فيه بزمام الأمور.. إيه كم تغيير ستشهده المنطقة حينئذ.. لم يعد ذاك اليوم ببعيد..

نزل معظم الركـــاب.. يتلمسون الأرض بأقدامهم.. وينفضون عن أنفسهم بعض وعثاء السفر وغبار الرحلة.. بقيت جالساً في مقعدي.. أحدق تارة في الأفق وتارة أخرى اتأمل السائق وقد ارتكز بصدره وساعديه على مقود السيارة وراح ينفث دخان لفافته ويزفر بين الحين والآخر منقلاً نظراته بين علم غريب يجثم فوق رابية على يمين الطريق وبين خط الأفق البعيد على الناحية الأخرى.. تاركاً لأي عابر سهولة تخمين افكاره من خلال شروده والقسمات المتجهمة التي اكتسى بها وجهه. كان ذلك الهدوء الموقت هو فرصتي لأوجه إليه اسئلتي:

- هل بقي الكثير لنصل إلى الجسر؟..

فوجيء بسؤالي مصوباً إليه مع نظراتي من المقعد المجاور له مباشرة.. لكن يبدو انه انتشله من عوالم أخرى.. تنحنح واعتدل في جلسته قبل ان يجيب في تدفق وامتزاج مع افكاره السابقة:

- نحن نقف أمامه بالضبط.. الا ترى ذلك العلم الغريب.. لا حول ولا قوة الا بالله.. سبحان مغير الأحوال.

- وأين النهر نفسه؟...

سألت وانا اتلفت من حولي. سكنت امارات الدهشة فوق حاجبيه وعينيه قبل أن يشير إلى خط متعرج من الشجيرات والاعشاب والبوص:

- بين هذين الصفين من اشجار الاثل والبوص.. يتضاءل كثيراً في الصيف ويستطيع الافراد عبوره في بعض الاماكن مشياً على الأقدام..

ثم تطلع ملياً قبل أن يقذف بسؤاله لي في تمعن:

- يبدو انك تزور المنطقة لأول مرة.. ابتسمت وأنا أهز رأسي موافقاً وقائلاً: ويبدو انك تعرف المنطقة جيداً.. عاد لبرهة إلى وجومه السابق قبل ان تنطلق كلماته في خفوت:

- عشرون عاماً في مهنة قيادة السيارات.. عشرة منها هناك في ميناء يافا وعشرة هنا على جسر الاحزان...

ثم اردف بنبرة أعلى كمن تذكر شيئاً فجأة: - لكن انت لم تقل لي ماذا تعمل في الخارج؟.

- أعمل في «الأشغال الحرة»..

- طبيباً أم مهندساً؟ أم محامياً؟.

- لا هذا ولا ذاك.. بل عمل قريب من هذا كله.

لم تعجب اجابتي محدثي فزام ونظر إلى جموع المسافرين وهم يهربون من لفح الشمس إلى الظل القليل هنا وهناك ريثما يأتي الأذن بالعبور. عادت الحافلة تكتظ بركابها حين تلقت الأمر بالتقدم نحو نقطة العبور. « تصاريح ».. أطلت الكلمة مع صورة الخوذة المرسومة بالخط الأبيض وشريط أحمر على الذراع بلون الوجه الغريب.. صمت الركاب هنا يعني أشياء كثيرة.. كل يرفع تصريحه في يده وخلف العيون أشياء كثيرة لا تقال.. السرطانة الغريبة تشق طريقها والأوراق البيضاء والزرقاء والخضراء تتكدس في يد آخر ما يتصوره العقل انها من دم ولحم عاديين.. حتى الشعر الكثيف المتناثر عليها تتخيل فيه الف مشنقة ومجزرة.. لكن مفتاح الجنة في هذه اليد التترية التي تقترب وتشد التصريح من يدي مع كلمات لزجة وثقيلة وقعت في سمعي:

- من الكويت؟..

هززت رأسي موافقاً وعيناي معلقتان في سلاحه تجيبان بصوت أخرس رفضاً لسؤاله: « بل من هذه الأرض التي تدوسها بحذاء امريكي وتقف على أبوابها حارساً تحدد لي ساعات زيارة عابرة.. وانت قل لي بربك من اين جئت؟ وهل تروق لك بلادي »؟ « قطعاً لا.. تقولها نظرات عينيك الزائغة المرهقة.. وخيبة الأمل التي تطل وراءها وتقول بان عسلها وسمنها لم يكونا في الحلاوة التي صوروها لك ولم يكونا سائغين لكل الافواه والالسن.

- كم واحد معك فى التصريح؟..

- عشرة.. (وأشرت إلى أطفالي وزوجتي من حولي).

لسعني بنظرات باردة.. مط شفتيه اشمئزازاً.. دفع خوذته إلى الخلف.. رطن كلمات لا يفهم منها الترحيب بأي حال.. ابتعدت خطواته.. استراحت نفسي للأشياء التي ضايقت نفسه.. بسلاحه هذا حصد الالوف هنا وهناك ويستكثر ان آتيه بعشرة.

في غرفة التفتيش الشخصي تذوب كل القيم.. تخلعها مع النعال على العتبة خلف الستارة.. ويبقى الأمن.. فقط الأمن.. وورقة توت حول عورتك فتبدو صغيراً.. تافهاً.. شيء لا يمت إلى البشرية بصلة.. وآلة تئز من حولك.. يتدفق الدم حاراً إلى أعلى الرأس. وتستحضر كل الاجهاد العربية ويحضرك آخر رقم قياسي حققه الارسال الاذاعي والتلفزيوني والبث المباشر، وتطوف بالجسد حمى من نوع آخر فترتسم على الشفاه بسمة مرة لكني أفرح لان آلتهم تدور على جسدي العاري وتفشل في كشف أشياء اخفيها تحت الجلد.. وتمر رغماً عنهم.. انها في تجويف الرأس.. وهم لن يستخدموا المبضع لفتحه.. وحتى لو فعلوا ذلك فلن يمسكوا شيئاً يتعلق « بالأمن ». بل بضع تراتيل للحب.. لست جنياً ولكني ابن هذه الأرض.. قلتها في نفسي بضع مرات وانا انتظر حذائي حتى يعود بدوره من تفتيشه الخاص في غرف جانبية.

تهون ساعات الانتظار.. يهون العرق.. والعطش.. والملابس المبعثرة على موائدهم النزقة.. وصراخ الأطفال.. ويبقى المهم « الأمن » فبين السبابة والابهام وحافة المنضدة يجب ان تمر كل قطعة ملابس، وفي سلة المهملات تستقر كل اداة مغلقة.. الأمن أولاً.. والثقة بالطبع منزوعة بهؤلاء العرب.. كتبهم.. صورهم يجب أن تمر على الأجهزة المعنية. ومن منظوري ابتلع كل المرّ لتنفتح في النهاية بوابة صغيرة تطل على أجمل ارض. وإلى اقرب سفح في روابيها تنطلق الاقدام وتوقع بحروف خرساء على ثراها القبلات، على كل طريق نظره، وفي كل منعطف رسم، ولكل قمة صورة، ولكل مبنى خطوط في الذاكرة، والكل يغوص وتبتلعه الأعماق... أعماق لا تطولها الات أو أسوار.. ينقب فيها غواص ماهر لينطلق إلى السطح ومعه بعض الزواده.

انتهت الزيارة.. كأي غريب.. وعلى الجميع أن يغادر.. لكن الحب ما انتهى.. ومواعيد اللقاء كثيرة.. انتهت طقوس حزينة لتبدأ بشائر الفرح.. ودّعتني في شموخ.. لم تبك بعينيها الخضراوين.. ولم ترتجف لها أوصال.. كانت بسمتها الجميلة تمتد من النهر إلى البحر وجدائلها تترامي حتى اطراف الصحراء.. حملتني اشياء ثمينة للمشتاقين.. واعطت الف موعد وموعد للقاء العشاق.. واشارت بأن المخاض لم يعد بعيداً فرجعت سعيداً من رحلة كانت بدايتها حزينة.. وادركت ان الأمور تبدو أجمل في نهايتها ما دام العطاء يغلف رحم الغيب الواعد ويعقد للأمل كل الازاهير.. كانت مياه النهر عند العودة اكثر تدفقاً وقوة، وعلى الشاطئين كانت اعواد البوص وأغصان الاثل تتراقص في تناغم وحبور.. وتنبىء ان الغيث آت..

الدوحة

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتورة

نوال السعداوي

- امراتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الارض
- امرأة عند نقطة الصفر
- أغنية الاطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقا
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الاضعف